اليـــوم الآخـــر

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ
إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾
وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

[الزمر : ٦٨ – ٧٠]

obeikandl.com

obeikandl.com

اليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر من صميم الإيمان.

ولا إيمان لمن لا يؤمن بهذا العالم الآخر.. حيث يجتمع الخلائق يوم الحساب للحساب، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.. ثم تحيا الخلائق حياة جديدة فى هذا العالم الذى فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فعندما يأذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنهاية الحياة، يتساوى الراقدون جميعًا تحت التراب.. يتساوى من عاش مع بدء الخليقة مع من عاش فى نهاية الحياة؛ لأن الإنسان عندما يموت يختفى الزمن.. ويظن الكل أنه ما لبث تحت التراب إلا ساعة من نهار!

وتجربة عدم الإحساس بالزمن بالنسبة إلى الأموات لا تحتاج إلى دليل، فنحن عندما ننام لا نحس بالزمن، فما بالك بالذى مات؟!

ولقد ضرب لنا ـ سبحانه وتعالى ـ عديدًا من الأمثلة حول الإنسان والزمن، فعندما يحكى لنا مثلا قصة أهل الكهف:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩ - ١٢]

فهؤلاء الفتية الذى يقص القرآن الكريم أمرهم علينا هربوا من بطش قومهم الذين يحاولون أن يفتنوهم فى دينهم، وأووا إلى هذا الكهف، وظلوا فى هذا الكهف ثلاثمائة سنين، وازدادوا تسعًا.

ولكنهم - وهم يتقلبون فى كهفهم طوال هذه السنين - لم يشعروا بالزمن، ولم يحسوا به.. ولا ظهرت تجاعيد الزمن على وجوهم؛ لأنهم خرجوا من قوانين الزمن!

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩]

فقد شعر هؤلاء الفتية بعد أن استيقظوا من نومهم الذى استغرق ثلاثمائة عام وازدادوا تسعة أنهم ما لبثوا فى نومهم إلا عدد الساعات التى كانوا يقضونها فى نومهم، حتى إنهم حاولوا أن يشتروا بما معهم من أموال ما يسدون به غائلة الجوع، ولم يعرفوا أن الزمان قد تغيَّر، وأن الناس غير الناس، والعملة غير

العملة! ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين لنا نسبية الزمن، وأن الإنسان مهما رقد تحت التراب فسوف يبعث، وعندما يبعث لن يشعر بتلك القرون المترامية التى قضاها تحت التراب.

كما يريد ـ عز وجل ـ أيضًا أن يوضح للناس أن أمر الساعة لا ريب فيه، وأننا سوف نبعث كما نقوم من النوم.

﴿ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ [**الكهف**: ٢١]

ويقول لنا الإمام ابن كثير فى تفسيره﴿ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ أى أطلعنا عليهم الناس ﴿**لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا**﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك!

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة فى شراء شىء لهم ليأكلوه؛ تنكَّرَ وخرج يمشى فى غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة. وذكروا أن اسمها أفوس، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها كما قال الشاعر:

أمـــا الديـــار فإنها كديـارهـم

وأرى رجـال الحى غير رجاله

فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التى يعرفها، ولا يعرف أحدًا من أهلها ولا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحيَّر فى نفسه ويقول: لعل فِيَّ جنونًا أو مسا وأنا حالم، ويقول: والله ما بى شىء من ذلك. وأنا عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة.

ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه طعامًا. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون: لعل هذا وجد كنزًا. فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وسألوه: من أنت؟

فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس، وفيها «دقيانوس».. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولى أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره، حتى أخبرهم بأمره وهو متحير فى حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قام معه ملك البلد وأهلها إلى الكهف، حتى انتهى بهم الكهف.

فقال لهم: دعونى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى. فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه وأخفى الله عليهم

خبرهم، ويقال بل دخلوا عليهم، ورأوهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلمًا فيما قيل واسمه «تندوسيس» ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه، وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله ـ عز وجل ـ والله أعلم.

وقد سدوا عليهم باب الكهف، ليظلوا فيه إلى يوم البعث.

وقصة أصحاب الكهف توضح للناس أن البعث حقيقة لا ريب فيها، وأنه مثل هؤلاء الذين ظلوا فى نومهم ثلاثمائة عام وازدادوا تسعة، ومع ذلك لم يحسوا بالزمن ولم يشعروا به. ونحن بعد أن نعيش حياتنا، وننتقل إلى جوار الله.. وعندما يشاء الله لهذه الدنيا أن تنتهى، فإن الذين ماتوا عند البعث يشعرون كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من زمان.. كما أن هذه السورة الكريمة بجانب أنها تثبت لنا يوم البعث وأنه سهل يسير على الله، فإنها توجب على المؤمن عندما يريد أن يفعل شيئًا أن يوقن بأن ذلك يتم بمشيئة الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...** ﴾ [**الكهف**: ٢٣، ٢٤]

وتقول كتب التفسير الكثير حول يوم القيامة..

واختلفوا فى تفسيراتهم. وهناك من المفسرين من ساق كثيرًا من الأساطير، وبعضهم حاول أن ينسب قوله إلى الرسول ﷺ.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن النفخ فى الصور:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]

يفسر هذه الآية محمد فريد وجدى، فيقول:

«الصور بمعنى البوق. قيل إن إسرافيل ينفخ فى بوق يوم القيامة فيموت كل حى، ثم ينفخ فيه أخرى فيقومون للبعث.. وعندنا أن نفخة بالبوق كناية عن إيذانه بمجىء يوم القيامة. ويقول أيضًا:

ونفخ فى الصور يوم القيامة، فهلك من فى السموات والأرض الأحياء إلا من شاء الله. قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، فإنهم يموتون بعد، وقيل حملة العرش. ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم أحياء ينظرون أى ينتظرون».

وهذا التفسير رغم قصره مما يقبله العقل.. فالنفخ فى الصور حقيقة يقينية؛ لأن القرآن الكريم تحدث عن ذلك، ولكن ما يجرى بعد ذلك فى هذا اليوم.. يوم القيامة.. من حساب وعقاب.. ودخول أصحاب الأعمال الصالحة الجنة وأصحاب الأعمال المنكرة النار.. فكل هذه الأمور لا خلاف عليها، ولكن كيف؟ هذا هو الاختلاف بين المفسرين.

ورغم أن يوم القيامة حقيقة لا يشك فيها مؤمن، فإن التفاصيل علمها عند الله سبحانه وتعالى، لأن أمور الغيب من المتشابه الذى يجب أن نؤمن به ولا يعلم حقيقته إلا الله جل وعلا.

الإمام ابن كثير يفسر هذه الآية بقوله:

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ مخبرًا عن هول يوم القيامة وما يكون فيها من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]

هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحًا به مفسرًا فى حديث الصور المشهور، ثم تقبض أرواح الباقين، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخرًا بالديمومة والبقاء، ويقول:

ـ لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه، فيقول: لله الواحد القهار. أنا الذى كنت وحدى، وقد قهرت كل شىء، وحكمت بالفناء على كل شىء.

ثم يحيى أول ما يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور نفخة أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث. قال الله عز وجل:

﴿...ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]

أى أحياء بعدما كانوا عظامًا ورفاتًا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢]

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

ويمضى الإمام ابن كثير يفسر هذه الآية وما تبعها من آيات تتكلم عن هذا اليوم العظيم، فيورد الأحاديث النبوية الصحيحة، ويورد بعض الأحاديث الذى تتحدث عن هذا اليوم وما فيه من هول ونعيم. ولكن الوضع فيها واضح، والخيال فيها واضح أيضًا، فيعلق عليه بقوله مثلا: هذا حديث غريب وكأنه مرسل والله أعلم.

ولكن الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى يوجز تفسير هذه الآيات التى تصور قيام الساعة وما فيها من حساب وعقاب إيجازًا بليغًا لا يجعل القارئ يتوه وسط مختلف أراء المفسرين وتباين بعض هذه التفسيرات، فيقول وهو يشرح ما بعد هذه الآية من آيات تعبر عن هذا اليوم العظيم:

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٦٩ – ٧١] الآيات حتى نهاية سورة الزمر.

يقول محمد فريد وجدى: وأشرقت الأرض بنور ربها، أى بعدل ربها، ووضع كتاب الحساب، وجىء بالنبيين والشهداء الذين

يشهدون للأمم وعليها من الملائكة والناس.. ووفيت كل نفس عملها، وسيق الذين كفروا إلى النار، حتى إذا جاءوها سألهم خزنتها تفزيعًا لهم:

ألم تأتكم رسل منكم ينذرونكم هذا اليوم؟

قالوا: نعم، ولكن وجبت كلمة العذاب على الكافرين، فلم يكن لنا محيص من قضاء الله وقدره، وقالت لهم ملائكة العذاب: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس منزل المتكبرين الذين ترفَّعوا عن اتباع المرسلين، وسيق الذين خافوا ربهم وأطاعوه، وترسموا خطوات رسلهم، ووقفوا عند حدود أوامره، وتوجهوا إلى الجنة جماعات جماعات حتى إذا وصلوا إليها، وفتحت لهم أبوابها، وقال لهم القائمون على أمرها من خزنتها: سلام عليكم، أى سلام عليكم من الله.. اطمئنوا؛ فلن يصيبكم بعد اليوم ما تكرهون، فقد طهرتم من دنس المادة والماديات وما تقتضيه من العلاقات، فادخلوها خالدين لا يهددكم بلاء ولا يعتريكم بعدها فناء.

وقال أهل الجنة: الحمد لله الذى حقق لنا وعده الذى وعدنا به على ألسنة رسله، وأورثنا الأرض، أى المكان الذى استقروا فيه على الاستعارة، ننزل من مكانات الجنة حيث نشاء، فنعم جزاء العاملين بما أوجبه علينا وأنزله إلينا».

ولأن هذا العالم ـ عالم الآخرة ـ لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا عنه القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، ومن هنا يكون المرجع

فى معرفة أمور هذا العالم إلى هذين المصدرين.. ولكن هناك الأحاديث المخترعة التى تصور العالم الآخر.. قد وضعها البعض، من ذلك مثلا ما روى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ، أنه قال:

«سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء:

النار وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسى، والعرش».

ويعلق الإمام ابن تيمية على هذا الحديث بقوله:

هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبى ﷺ، وإنما هو من كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لم يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار، والعرش، وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم.

وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة وأئمتها.

كما فى ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأصلها وبقاء غير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره. وقد استدل طوائف من أهل الكلام (من علماء الكلام) والمتفلسفة على امتناع فناء جميع المخلوقات بأدلة عقلية. ونحن هنا لا نخوض فى مجاهل الفلسفة أو متاهات

أصحاب التفكير العقيم، ولا نسرح فى أودية علماء الكلام.. ولكن نقف عند ما أمرنا الله به فنفعله.. وعند ما نهانا عنه فنتجنبه، موقنين بعدل الله، وأن الله رحيم بعباده.. وعلينا أن نتأمل هذا الحديث القدسى الرائع الذى قاله أبو ذر عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه ـ تبارك وتعالى - أنه قال:

«يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا.

يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم.

يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم.

يا عبادى، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم.

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفر لكم.

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا.

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

ومما علق عليه الإمام أحمد بن تيمية على هذا الحديث القدسى:

ففيه مسألتان كبيرتان، كل منهما ذات شعب وفروع.

إحداهما: فى الظلم الذى حرمه الله على نفسه، ونفاه عن نفسه بقوله ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ...**﴾ [**هود**: ١٠١] وقوله: ﴿**... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [**فصلت**: ٤٦]

وقوله: ﴿**... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾ [**النساء**: ٧٧] ونفى إرادته بقوله: ﴿**... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٨].

ونفى خوف العباد له بقوله: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا**﴾ [**طه**: ١١٢] فإن الناس تنازعوا فى معنى هذا الظلم تنازعًا، وصار فيه بين متباعدين، ووسط بينهما، أو خيار الأمور أوساطها. وذلك بسبب البحث فى القدر ومجامعته

للشرع، أو الخوض فى ذلك بغير علم تام، أوجب ضلال عامة الأمم، ولهذا نهى ﷺ أصحابه عن التنازع فيه».

فثواب الله لمن عمل بما أمر به.. وكذلك رحمته.

والعقاب لمن انتهك حرماته التى نهى عنها، إلا من رحم.

ولكن كيف تكون عليه الحياة فى العالم الآخر؟

كيف يعيش أهل الجنة وهم ينعمون فيها؟

وكيف يعيش أهل النار وهم يتعذبون فيها؟

الإجابة صعبة وعسيرة.

ووجه الصعوبة والعسر أن اليوم الآخر له قوانينه.. وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب لنا فى القرآن الكريم ما سوف نراه فيه من نعيم أو عذاب.. فيقول لنا مثلاً: وهو يصف الجنة:

﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ...** ﴾ [**محمد** : ١٥]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يصف لنا الجنة بما نراه فى دنيانا.. ويقول ﴿ **مَثَلُ** ﴾. إنه يقرب لنا صورتها.. أما الجنة فشىء آخر.. لا يمكن أن تستوعبه عقولنا؛ لأن فيها من الأمور ما لم نره فى دنيانا.. ولا أدركته حواسنا فى حياتنا. فهو يشبه النعيم بما نعتبره نعيمًا فى حياتنا.. من أنهار عذبة، ولبن طازج لم يفسد، وأنهار

من خمر، أو من عسل. كما يقرب لنا ما فيها من نعيم بما نستشعره فى دنيانا بما فى الحياة من فاكهة. إنه تشبيه يجعلنا نقترب بأذهاننا من معالم الصورة، أما الصورة نفسها فهى شىء آخر.. فوق مداركنا وأحاسيسنا، أو على حد تعبير الرسول:

«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فما سوف نراه فى الجنة لم نر مثله فى حياتنا بعيوننا، ولا سمعنا عنه فى آذاننا، ولا خطر على بالنا قط!

فما وراء هذه الحياة غيب لا يعلمه إلا الله.

ومهما حاولنا معرفة أسرار ما بعد الموت فسوف تعجز عقولنا عن إدراك ذلك.. أو على حد تعبير القرطبى وهو يحدثنا عن الأنبياء والشهداء بعد انتقالهم إلى أكرم جوار:

«الموت ليس بعد، وإنما هو انتقال من حال إلى حال. ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا. وإذا كان فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى. وقد صح أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس، وفى السماء، ورأى موسى ـ عليه السلام ـ قائمًا يصلى فى قبره، وأخبره بأن يرد السلام على كل من سلم عليه، وإلى غير ذلك مما

يحصل من جملة القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال فى الملائكة، فإنهم موجودون لا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامته من أوليائه».

والقرآن الكريم وهو يشبه لنا ما يجرى فى العالم الآخر، فإنه يشبه لنا هذا النعيم بما كان العرب يتمنونه، أو ما يرون أنه السعادة، فقد رأى منهم من رأى كيف يعيش ملوك الفرس، وقياصرة الروم، أو سمعوا من الذين رأوا ما كان عليه القوم والملوك والأكاسرة من ثراء وجاه وأبهة.. رأوهم يعيشون فى القصور. وهذه القصور تحيط بها الحدائق الغنَّاء، وتجرى بين هذه القصور الأنهار أو قنوات المياه، ورأوهم يلبسون أزهى الملابس وأجملها، ورأوا ما يقوم على خدمتهم من خدم وحشم.. كل هذه الصور للنعيم هى التى كان يتمناها العربى الذى يعيش فى هجير الصحراء، أو تحت خط الفقر كما نقول بلغة العصر.. فالصحراء قاسية بالغة القسوة فى الصيف، وهى بالغة البرودة فى الشتاء.. ولا يحميهم من شمس الصيف أو برودة الشتاء إلا تلك الخيمات المقامة بالقرب من نبع الماء.. وما يحيط بها من نخيل، فكان أقصى أمانيهم أن يعيشوا فى قصور كتلك التى يعيش فيها أثرياء الفرس والروم..فشبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم نعم الآخرة بأن فيها جنات من نخيل وأعناب، وأن بها أنهارًا من لبن لم يتسنَّه.. و..و..

أما النعيم الحقيقى.. ما فى الجنة من سعادة. وما فيها من ألوان المتعة، فشىء فوق ما يمكن أن يتصوره عقل أو يرنو إليه خيال. ومن هنا يقول جل من قائل:

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

وكل ما يجرى فى الآخرة هو من المتشابهات.. و«المتشابهات» هى التى أخبرنا الله بها، وعلينا أن نؤمن بها حتى لو لم تدركها عقولنا كاليوم الآخر، وعالم الجن، والملائكة.. وكل ما هو فوق إدراكنا وأفهامنا.

أو على حد تعبير الأستاذ أحمد التاجى.

«فقد علم الله أن لا غنى عن المحكم والمتشابه، فالمحكم يصلح دنيا العباد، وبعدهم لأخراهم، والمتشابه يصور لهم المشاهد التى تنتظرهم؛ ليضعهم بين الرغبة والرهبة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة».

ولا يظلم ربك أحدًا.

فجاء بالآيات المتشابهات، وجعلها مثانى، يصف فيها مشاهد المحسنين، ويعقب عليها بمشاهد المفسدين، مشاهد أهل الجنة وأهل النار، أهل الهدى وأهل الضلالة، فهى تتكرر مثنى فى الآيات، لذلك سماها المثانى، ولأن فيها عبرة بالغة كانت أحسن الحديث.. يقول تعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]

وفيها يضع الله الناس وجهًا لوجه أمام أبصارهم، ويجعلهم يتخذون طريقهم، فإما إلى جنة، وإما إلى نار!

فهذه الآيات هى المبشرات والمنذرات، وما أرسل الرسول إلا بشيرًا ونذيرًا، ولو أخفى الله حديثه عن الغيب الذى لا يحيط به أفهامنا، لوقعنا فى عماية وضلالة، ولما تسابق العباد فى طاعته، ولتراكضوا على شهوات الدنيا الخسيسة، وعاشوا كأنهم فى غابة يأكل القوى فيهم الضعيف، وقالوا كما قال أهل الجاهلية:

﴿ ...مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ...﴾ [الجاثية: ٢٤]

ولم يرتدع الناس ويقفوا عند حدودهم إلا بعد ما عرفوا ما أعد الله لهم فى الآخرة، وما ينتظرهم من جزاء على أعمالهم، وكان تصور المشاهد ضرورة لتهز وجدانهم، وتخلع قلوبهم، بعد أن قست فصارت كالحجارة أو أشد قسوة.

وما يقال عن مشاهد النعيم فى الجنة يقال أيضًا عن مشاهد العذاب فى النار.. فهناك عذاب.. هذه حقيقة.. ولكن كيف؟ إنه من الأمور المغيبة.. من المتشابه.. لا أحد يعرف كنهه إلا الله سبحانه وتعالى.. وإلا كيف ندرك معنى أن يتحادث أهل النار

والنار تشوى جلودهم، وهذه الجلود تتغير وتتبدل مع هذا العذاب؟!

وكيف نفهم أنهم يأكلون فى جهنم، وطعامهم من غسلين؟! ويشربون ما يشوى البطون؟! إنه تشبيه يقرب إلى الأذهان صورة العذاب الذى سوف يتعرض له من أشرك بالله، ومن ظلم الناس، ولم يؤدِّ حقوق العباد. . والذين لم ينتهوا عما حرم الله، أو عاشوا كما أمرهم الأنبياء والمرسلون.

ولعل من أجمل الصور التى صورت العالم الآخر ما كتبه الإمام المحاسبى. . وقد أورده الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه «القيامة فى تصور المحاسبى».

ويحدثنا الدكتور عبد الحليم محمود عن يوم القيامة فى تصور المحاسبى فى كتابه بقوله:

«يتضمن القرآن آيات عديدة تتعلق باليوم الآخر، وخاصة فى الأجزاء المكية منه، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١ - ١٤]

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ١ - ٥]

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١-١٦]

والمحاسبى يتحدث عن القيامة فى مواضع مختلفة من مؤلفاته، وهو يسعى بذلك - على النهج القرآنى فى تحذير الناس - إلى غرس التقوى فى قلوبهم بالوعد ثم الوعيد. . وقد خصص كتابًا لوصف اليوم الآخر، وما يلقاه الإنسان بعد الممات هو كتاب «التوهم». والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلَّفُ كبحث دينى لشرح ما سوف يكون يومًا ما فى الآخرة، ولكنه يصور فيه العالم الآخر ومصير الإنسان حسبما يتخيله هو منهما. . وهو لا يناقش حجة، أو يذكر مصادر علم وإن كان لا يخرج عن إطار فكر أهل السنة.

وكتاب التوهم هذا لم يصدر عن عالم إلهيات، بل هو من إنشاء شاعر روائى، وأروع ما يلفت نظر القارئ له - بادئ ذى بدء - أسلوبه العربى الباهر، الذى يعتبر من مآثر المحاسبى الباقية على

مر الزمن، ثم إنه جعل من وصفه الآخرة نموذجًا أدبيا فريدًا، واستطاع أن ينفذ بكل فصل منه إلى أعماق قلوب قارئيه.

وليس لنا هنا أن نتناول مزايا هذا الكتاب من ناحية اللغة والأسلوب، وإننا لنلتقى بعرض هيكله الأساسى.

يرى المحاسبى أن الإنسان إذا حضر أجله رأى ملاك الموت فى مظهر جميل غاية فى الجمال، أو فى مظهر مخيف، ويحدثه هذا الملاك إما بالوعود الباسمة، وإما بالوعيد حسبما أتى فى دنياه من خير أو من شر.

وبعد أن يهال عليه التراب، ينزل إليه ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته خيرًا يسرت عليه الإجابة، وإن كانت حياته شرا تردَّدَ فى الإجابة وأثقل عليه.

ويفتح الملكان طاقة فى القبر يلمح منها الجنة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب، طبقًا لما كانت عليه إجاباته.

ويندثر الجسم الميت، ولكن يبقى فى روحه إلى يوم البعث.. إما السعادة وإما الشقاء. فإذا مات سائر البشر، ولم تعد الأرض تحمل مخلوقات من الأحياء، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير.

عندئذ تنشق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث مصدر النداء.

وإذا اجتمع الكل، اندثرت الكواكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، وانشقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتنصت إلى الحساب الأخير.

ويرى الناس الملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فيرتعد الملائكة لذكر اسم الله، ويجيبون: «سبحان الله! إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولما يكمل التفاف الملائكة بالمخلوقات تعود الشمس إلى الظهور من فوق رؤوسهم، وتبلغ حرارتها مقدار عشر سنوات من الحرارة ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويستمر لظى الشمس، والضيق الناتج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حساباً ولو كان مصيرها إلى جهنم، وتتوسل فى سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى يشفعوا لهم فى ذلك عند الله، فيكون جوابهم: إن غضب الله عظيم، وإنهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء.

عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب.. ويأمر الله جبريل بأن يُحضرَ إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عقاب الله، ولكنها ترى أن غضب الله يقع على المخلوقات، فتغضب هى الأخرى عليهم، ويسأل الله أنبياءه: ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟

فيجيبون على استحياء: لسنا ندرى، وأنت العليم.

وفى هذه اللحظة يتنكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسعى إلى ذكر ما كان له من فضل على الآخر فى الدنيا حتى يُظهِرَه فى الآخرة.

وقبل الحساب تمدُّ جهنم برقبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستبقة الحكم عليهم، ثم تأتى الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد الله فى كل حال، ومن كان يسهر فى الليل فى ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب فتستقر فى أيدى الناس، إما اليمين منها وإما الشمال، ثم ينصب الميزان، ويتقدم إليه الناس والملائكة يزنون أعمالهم، فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم، وتأتى كائنات من لهب، لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأل الله عما اقترفه من شر فى الدنيا وكيف ارتكب هذا الشر رغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله له أو عليه.

ولكن على الإنسان قبل دخول الجنة أو السقوط فى جهنم أن يجتاز شريطًا ضيقًا حادا كالسيف قد علق من فوق النار، ليمشى عليه حاملا جميع ذنوبه على ظهره. وكل خطوة فوقه ألم رهيب، ولهيب النار يصعد إليه، ويلفح من فوقه، فمن حكم عليهم زلت قدمه وسقط، فالتهمه الجحيم.

أما الرجل الذى كان خيِّرًا فى دنياه فيمشى على الشريط فى يسر وثقة، ويرى الجنة قبل الوصول إلى نهاية الشريط.

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال. . ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل آفات القلوب. فإذا ما أتم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسبى لها بالوصف بعد ذلك، ووصفه لكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال: فمن أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء فيها مكتملات الجمال، وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من الشراب، فى كئوس من فضة وذهب حليت باللؤلؤ.

ويرى الدكتور عبد الحليم أن هذا الفصل من كتاب المحاسبى لافت للنظر بما فيه من تصوير بارع للملذات الجسدية مع الحور، ولا شك أن الموضوع مهيأ للتخيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكرة وصل هنا إلى قمة كمالها.

ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من الكتاب. وإننا لنرى ـ كما يرى الأستاذ ماسينيون والأستاذ آريرى ـ أن كل ما جاء به المحاسبى (المؤلف) من وصف مبدع إنما هدفه فى الحقيقة أن يكون مقدمة ـ ومقدمة موسيقية مروعة لغتها، لتجلى الذات الإلهية للصفوة المختارة. فإذا ما نال أهل الجنة حظهم من هذا النعيم، ناداهم الملائكة إلى سعادة أخرى:

أن يمتطوا جياداً سماوية، زينت رؤوسها بتيجان من الأحجار النفيسة، فإذا ما وصلوا إلى غايتهم، أجلسوا فى مقاعد وثيرة، وأتم الله إكرامهم بوليمة أطباقها من ذهب، وخدمها الملائكة.

ويواصل المحاسبى وصف ما يلقاه أهل الجنة من رضوان ربهم: ثم ترفع الستر ويتجلى عليهم الله فى روعة كماله، فإذا رأوا الله كان لهم بذلك من السعادة ما لم يقدروا قط على تخيله، فالله الخالد لا شبيه له، ويسلم الله عليهم، ويحدثهم، وينصتون إليه فى شوق، ويشعرون بسعادة لا تحد، تنزل فى قلوبهم، وتستر وجوهم بانعكاسات هذه السعادة العليا.

وأخيراً يأذن الله لهم بالعودة إلى الجنة، ليعيشوا فيها أبداً خالدين فى النعيم والسعادة التى أفاضها على عباده المخلصين.

❀ ❀ ❀